خواطر «پاسكال»

بقلم : ت . س. إليوت
ترجمة وتقديم : ماهر شفيق فريد

تقديم :

للفيلسوف الفرسى بليز پاسكال (١٦٢٣ - ١٦٦٢) جاذبية خاصة للأدباء فلا يكاد ينجو من غوايته منهم سوى قلائل . ذلك ان پسكال لم يكن فيلسوفا وعالما رياضياً فحسب ، وانما كان ايضا أديبا له مكانه فى تطور النثر الكلامى الفرنسى فى القرن السابع عشر ، ولا يكاد تاريخ الأدب الفرنسى يخلو من صفحات أو حتى فصول كاملة عنه . أمامى الآن الجزء الأول من الترجمة العربية للكتاب جوستاف لانسون أستاذ محمد مندور - الموسوم بـ «تاريخ الأدب الفرنسى» من ترجمة الدكتور محمد محمد القصاص (المؤسسة العربية الحديثة، القاهرة ، د.ت) فأجده يقول فى الفصل الذى عقده لـ پسكال : «يمتاز أسلوبه الذى يعتبر من أكثر الأساليب حيوية بخاصيتين جوهريتين ، هما المنطق وحرارة الإيمان . وهكذا يعتبر پسكال شاعرا من أعظم الشعراء الذين عرفهم الأدب المسيحى» (ص ٢٣٧) ثم يقول بعد صفحات قلائل : « لا يوجد شعر أوسع ولا أعنف من ذلك الذى يصل إليه پاسكال حين يضع نفسه وجها لوجه أمام الهول الذى لا ترقى إليه معارف البشر . وهو حينئذ يكتفى بأبسط الألفاظ : «إن الصمت الأبدى لهذه المسافات غير المتناهية يروعنى» ، «تضيق الأرض ضيق الذرة» . هذه الصور الميتافيزيقية التى تلقى بلهبها القاتم فى غضون العرض مما يتميز به پسكال . وقد استطاع بها ان يبرز شعر الدين بقوة ملحوظة ولا نعنى الشعر الخارجى ، بل الشعر الداخلى الشخصى الذى يملأ نفسا مؤمنة متحدة مع الله» (ص ٢٦٣ - ٢٥٤) .

وفى مجلة «تراث الإنسانية» (٥ يناير ١٩٦٤) يكتب إيليا نعمان حكيم -

وهو من أكبر المتخصصين فى اللغة الفرنسية وآدابها - مقالة عن كتاب «الخواطر» لپاسكال فيذكر ان رسائل پاسكال المسماة «رسائل إلى رجل من الريف» كان لها أعظم دوى فى الأوساط الدينية والأدبية حتى ان بوالو أكبر نقاد ذلك الوقت قال عنها إنها أروع عمل أدبى فى اللغة الفرنسية» (ص ٧٧) .

ويترجم إيليا نعمان حكيم طرفا من كلمات پاسكال فى «الخواطر» فنجده - مثل نيتشه - عالما نفسانيا عظيما سبق علم النفس الحديث إلى كثير من استبصاراته . انظر مثلا إلى هذه الكلمات :

- «يشعر الإنسان ببؤسه فهو بائس ، ولكنه عظيم لأنه على وعى من بؤسه».

- «الإنسان شجيرة هزيلة ولكنها شجيرة (أو قصبة) مفكرة» .

- «ليس عارا على الإنسان ان يسقط امام الألم ولكن ان ينهار أمام اللذة».

- «ما كنت لتبحث عنى لو لم تكن قد عرفتنى » (قارن قول عمر الحمزاوى فى ختام رواية نجيب محفوظ «الشحاذ» . «وتردد الشعر فى وعيه بوضوح عجيب إن تكن تريدنى حقا فلم هجرتنى!؟» .

- «إن هذا السكون الأبدى الذى ينتشر على الفضاء اللانهائى يخيفنى» .

ثم هناك كلمته العظيمة : «إن للقلب أسبابه التى لا يعرف العقل عنها شيئاً، وإن أسىء فهم هذه العبارة ، كما يوضح إليوت .

وپاسكال - فى أى البعض - من رواد الفكر الوجودى ، وبين الوجودية والأدب وشائج وثيقة (فى الطريق إلى القارىء العربى كتاب للدكتور أحمد عبدالحليم عطية عن الوجودية فى الفكر العربى المعاصر) . يقول الأديب والمترجم الراحل فؤاد كامل فى كتيبه الصغير - حجما لا قدرا - «فلاسفة وجوديون» : «نستطيع ان نلمح فى «پاسكال» و «بلوندل» الفرنسيين تابعين لهذا الفكر الأغسطينى، وأصلين مباشرين للحركة الوجودية فى فرنسا ، فكلاهما حاول الكشف عن طبيعة الإنسان وعن سر وجوده ، وكلاهما كان يعتقد أننا رغم وجودنا فى هذا العالم دون إرادة منا مسئولون عن مصائرنا ، واننا جميعا نبحث

عن السعادة دون أن نعثر عليها حتى يتلقفنا الموت وكلاهما كان يبحث عن معنى الوجود الإنسانى» (الدار القومية للطباعة والنشر ، القاهرة ، سلسلة كتب ثقافية، د.ت) (ص ٧ –٨) .

وعلى الوجـــه المقـــابل هناك من ينفى ان يكون پاسكال أباً أو من آباء الوجودية، وإن أقرّ بوجود عناصر وجودية فى عمله وذلك بقدر ما كان معايشة حية للوجود وليس مجرد تأمل نظرى فيه . يقول الدكتور زكريا ابراهيم فى كتيبه «الفلسفة الوجودية» (سلسلة اقرأ ، رقم ١٦١، دار المعارف ، مايو ١٩٦٥): «على الرغم مما قد يكون فى تفكير أوغسطين أو بسكال من طابع وجودى – نظرا لبعد كل منهما عن النظر العقلى المحض واقترابه الشديد من مشاكل الوجود البشرى بما فيها من قلق عنيف وصراع حى – فقد يكون من التعسف ان تنسب إليهما «فلسفة وجودية» بالمعنى الاصطلاحى الدقيق ، وحتى إذا سلمنا بوجود «بذور وجودية» فى فلسفة أوغسطين أو فى فلسفة بسكال ، فربما يكون ظهور فيلسوف وجودى مثل كيركجارد هو وحده المسئول عن ذلك «الطابع الوجودى» الذى قد ننسبه إلى مثل هذين الفيلسوفين» (ص ١١ – ١٢) .

ليكن الأمر ما يكون ، فالذى لا مشاحة فيه ان پاسكال من فلاسفة الأخلاق، وان الاخلاق تقع من اهتمامات الأديب فى الصميم ، فردية واجتماعية، إن پاسكال – كما يشير إليوت فى هذه المقالة – جزء من ذلك الموروث الفرنسى من فلاسفة الأخلاق لابرو بير وڤوڤنا رج ولارو شفوكو وچيد وبروست . وهو موروث يمتاز بانفتاحه على نقائض البشرية وجدلها المتواصل مع الوجود ، وتوترها بين النسبى والمطلق ، بين البدن والنفس .

فى المكتبة العربية كتاب ممتاز عن پاسكال هو كتاب الدكتور نجيب بلدى فى سلسلة «نوابغ» الفكر الغربى» (دار المعارف ، د.ت) ، وقد أستخدمت فى ترجمتى لمقالة إليوت ترجمة نجيب بلدى لقطعة من پاسكال . كذلك كتب عنه نجيب بلدى، وأورد مقتطفا من رسالته المسماة «حديث مع الأب دى ساسى» فى كتابه الآخر المسمى «مراحل الفكر الأخلاقى» (دار المعارف ٩٦٢) . وقبل نجيب بلدى هناك

بطبيعة الحال تلك الصفحات الثرية، رغم إيجازها البالغ، عن پاسكال فى كتاب يوسف كرم «تاريخ الفلسفة الحديثة» (دار المعارّ ، ١٩٥٤)

كان الشاعر الانجليزى ت . س. إليوت (١٨٨٨ - ١٩٦٥) دارسا للفلسفة فى هارڤارد وأكسفورد وألمانيا قبل ان يتخذ قراره المصيرى بهجران الفلسفة، والاستقرار فى لندن ، والاقتران بفتاة انجليزية ، والتحول إلى الأدب (أى رسالته للدكتوراه فى موضوع «المعرفة وموضوعات الخبرة فى فلسفة ف. هـ. برادلى» تحت إشراف چوزيارويس ، ولكنه لم يسافر لاستكمال مناقشة الرسالة ، ولم ترّ النور إلا فى ١٩٦٤ ، قبل وفاته بعام) . تتلميذ إليوت لچورچ سانتايانا وبرتراندرسل ، وإن ثار على جوانب أساسية من فكرهما فيما بعد . وكتب مقالات عن لايبنتز وسبنوزا ونيتشه وبرادلى وغيرهم ، كما ظلت الفلسفة الإغريقية - أرسطية وأفلاطونية - هى إطاره المرجعى دائما . وقد صبّ إليوت نفسه سوط عذاب على الفلسفات المادية والسلوكية - هوبز ، ماركس ، واطسون .. الخ - ووجدت عاطفته الدينية (فهو أكبر شاعر انجليزى مسيحى فى قرننا العشرين) سندا فكريا فى فكرة المطلق عند برادلى (أكبر ممثلى الهيجيلية الجديدة فى بريطانيا) ، وفى حركة أكسفورد التى قادها الكاردينال هنرى نيومان فى العصر الفيكتورى ، وفى فلسفة پاسكال التى راهنت على الإيمان (مثلما فعل المعرى فى بعض شعره) . ظهرت هذه المقالة لأول مرة على شكل مقدمة لكتاب «خواطر» پاسكال فى ترجمة انجليزية بقلم و . ف . تدوتر صدرت فى لندن وتورونتو بعناية الناشر ج . م . دنت فى ١٩ سبتمبر ١٩٣١ ، وذلك فى سلسلة «إڤريمان» التى كان يشرف عليها إرنست رايس، وتضم كتبا فى اللاهوت والفلسفة . ثم أعيد طبع المقالة فى كتاب إليوت المسمى «مقالات قديمة وحديثة» (١٩٣٦) وكتاب «مقالات مختارة» (دار فيبرو فيبر للنشر ، لندن ١٩٨٦ ، وعنها ترجمنا المقالة) .

للمقالة ، إلى جانب تشويقها الفلسفى والفكرى الباطن ، أهمية من نوع آخر تتمثل فى كونها مرآه لفكر إليوت فى أواخر العشرينيات ومطالع الثلاثينيات ،

حين اكمل تحوله من لا أدريته الباكرة إلى مسيحية دوجماطيقية ترى فى عقيدة التجسد المسيحية أساسا للإيمان ، وترى فى نيومان وباسكال مدخلا إلى عالم العقيدة القطعية الكاثوليكية ، وإن انضوى إليوت تحت لواء الأنجلو - كاثوليكية لا كاثوليكية روما . وفى المقالة بعض عبارات تلقى ضوءا على شعر إليوت فى الفترة ذاتها . وتوضح مدى التكامل بين نقده وشعره . انظرمثلا إلى قوله «إن بعض صور المرض ملائمة تماما لا للاستنارة الدينية فحسب ، وانما أيضا للإنشاء الفنى والأدبى «وتذكر انه كتب رائعته «الأرض الخراب» عام ١٩٢١ وهو مريض بدنياً وعصبياً يلتمس الشفاء فى مورجيت ثم فى سويسرا ، وانظر إلى قوله أن باسكال كان «يواجه دون نكوص شيطان الشك الذى لا ينفصل عن روح الايمان». شيطان الشك؟ إنه يرد فى الحركة الثالثة من قصيرة «أربعاء الرماد» التى ظهرت فى ١٩٣٠، أى قبل هذه المقالة بعام :

لدى المنعطف الأول فى السلم الثانى
استدرت وأبصرت تحتى
ذات الشكل ملتفا حول حاجز السلم
تحت البخار فى الهواء الكريه الرائحة
مناضلا شيطان السلم ، ذلك الذى يرتدى
الوجه الخدّاع : وجه الرجاء والقنوط .

هنا نجد تجربة روحية بالغة العمق والثراء ، فهذا الشيطان الذى يتصارع معه المتكلم هو شيطان الشك الذى سبق لباسكال ان واجهه ، ثم انتصر عليه ليلة الاثنين الموافق ٢٣ نوفمبر ١٦٥٤ حين مر باسكال بتجربة صوفية حاسمة قاتل فيها الشك فقتله . إنه ، هنا، أشبه بيعقوب إ ذ يصارع الملاك فيصرعه، على نحو ما تذكر التوراة (انظر تفاصيل هذه التجربة الصوفية فى كتاب الدكتور نجيب بلدى، ص ٩٦-٩٨) .

فى مقالة إليوت أيضا نظرات عميقة - على إيجازها - فى فلسفات مونتنى ورينان وڤولتير وأناتول فرانس وغيرهم من الشكاك. لم يكن إليوت، إذ تحول إلى

الدين ، مـؤمنا سـاذجـا يلوذ بإيمـان العـجـائز وانما كـان - وهو قـارىء دوستويفسكى ونتشه وداروين وفريزر وفرويد وماركس واينشتاين - يدرك مدى الصعوبة التى ينطوى عليها فعل الإيمان فى العصر الحديث . إن المقالة وثيقة روحية تضيء تجربة إليوت بقدر ما تضيء تجربة پاسكال .

قال إليوت ذات مرة - بعد سنوات طويلة من كتابته هذه المقالة - إنه عندما أعاد قراءتها دهش لكم المعرفة التى يبدو أنه كان يمتلكها حينذاك، والتى أنسيها منذ ذلك الحين . وليس مثل هذا التواضع الساخر بالغريب على إليوت : فقد قال - بعد هجرانه الفلسفة - إنه لا يستطيع الآن ، وقد علت به السن، ان يفهم أطروحته عن برادلى التى كتبها فى شبابه . ويتذكر المرء قول الشاعر الفيكتورى روبرت براوننج عن إحدى قصائده ، وكان مشهورا بالصعوبة : عندما كتبت هذه القصيدة لم يكن يعرف معناها سوى الله ،وأنا . أما الآن - وقد مضت سنوات على كتابتى لها - فلا يعرف معناها سوى الله ! .

لا بأس . للأدباء من طبقة إليوت وبراوننج ان يعمدوا إلى السخر من الآخرين ومن أنفسهم ، ولكنهم حتى فى هزلهم جادون يدعوننا إلى إعمال الفكر وتقليب الأمور على كافة أوجهها ، ألم يكن سقراط العظيم يدعى الجهل ويستخدم منهج السخرية ؟ ألم يزعم انه أجهل الناس ، وهو فى الحقيقة أحكمهم وأعرفهم بحدود معرفته وحدود معرفتهم ؟ ألم يشك المعرى قائلا : وأعجب منى كيف أخدع عامدا ، على أننى من أعلم الناس بالناس ؟ إنه أصدق نصف بيت قالته العرب، على حد تعبير الشاعر صلاح عبدالصبور .

فى ترجمتى مقالة إليوت التزمت الدقة الكاملة ، وحاولت ألا أخرم حرفا مما يقول وألا أنقاد لغواية البلاغة العربية بما يجور على أمانة النقل . وأوردت المقتطفات الفرنسية بلغتها الأصلية مع ترجمتها كلما تيسر لى ذلك ، هذه تحيتى لروح مفكر كبير عرف شيئا عن التجربة الصوفية، وكتب عن ابن الفارض، وابن سبعين، وابن عربى وغيرهم . فلا ضع القلم كى أدع إليوت يتكلم ، (المترجم).

خواطر Pensées باسكال (١٩٣١)

قد يبدو ان كل ما يمكن ان يقال عن بلير باسكال، وعن الكتابين اللذين تقوم عليهما شهرته، وقد قيل . فتفاصيل حياته قد عُرفت بأكمل ما يمكن لنا أن نتوقعه ، واكتشافاته الرياضية والطبيعية قد تنولت عدة مرات ، وعاطفته الدينية وآراؤه اللاهوتية قد نوقشت المرة تلو المرة ، وأسلوبه النثرى قد حلله نقاد فرنسيون. غير ان باسكال واحد من هؤلاء الكتاب الذين ينبغى أن يُدرسوا، من جديد، فى كل جيل. فليس هو الذى يتغير ، وانما نحن . وليست معرفتنا به هى التى تتزايد ، وانما عالمنا يتغير كما تتغير اتجاهاتنا إزاءه. وتاريخ آرائنا البشرية فى باسكال وفى الرجال الذين من قامته انما هو جزء من تاريخ الإنسانية . وفى هذا ما يشير الى أهميته الباقية .

أن الحقائق القليلة عن حياة باسكال التى نحتاج إلى تذكرها فى فحصنا لكتابه (الخواطر) هى كما يلى : ولد فى كليرمون بأوفرن فى ١٦٢٣. وكانت أسرته ميسورة الحال تنتمى إلى الطبقة المتوسطة العليا . وأبوه موظف حكومى أمكنه عند وفاته، ان يترك إرثا كافيا لابنه الذكر الوحيد وابنتيه . وفى ١٦٣١ انتقل الأب إلى باريس ، وبعد ذلك ببضع سنوات تقلد وظيفة حكومية أخرى فى روان . وأينما كان باسكال الأب يعيش ، كان يختلط - فيما يلوح - بصفوة القوم، وبشخصيات بارزة فى العلم والفنون . وقد تلقى بليز تعليمه بأكمله على يدى أبيه فى المنزل ، وكان مبكر النضج على نحو بالغ ، بل من المحقق انه كان مبكر النضج على نحو مسرف، لأن انكبابه على الدرس فى طفولته ومراهقته أضر بصحته ويعتقد انه السبب فى وفاته فى سن التاسعة والثلاثين.

وقد بقيت لنا قصص خارقة للعادة - وإن لم تكن مستحيلة التصديق - خاصة عن نضجة المبكر فى الرياضيات . لقد كان ذهنه نشطا أكثر منه تراكميا، وقد نمّ - منذ سنواته الباكرة - على ذلك الميل إلى اكتشاف الأشياء بنفسه ، الذى ميز طفولة كلارك ماكسويل وغيره من العلماء . ولا حاجة بي إلى ان أذكر

اكتشافاته التالية فى علم الطبيعة، وانما حسبنا ان نتذكر انه يُعد واحدا من أعظم علماء الطبيعة والرياضيات فى كل عصر، وانه قد قام باكتشافاته ، فى السن التى يكون فيها أغلب العلماء ما زالوا صبية يتدربون .

كان پاسكال الأب، إيتين ، مسيحيا مخلصا . وحوالى ١٦٤٦ مال إلى بعض ممثلى الإحياء الدينى ، فى نطاق الكنيسة ، الذى صار يعرف باسم الجانسينية، على اسم جانسينوس ، أسقف يبرز ، الذى يعد عمله اللاهوتى أصل الحركة . ويُتحدث عادة عن هذه الفترة على انها حركة «الاهتداء الأول» لپاسكال . ومهما يكن من أمر ، فإن كلمة «اهتداء» أقوى من ان تستخدم ، عند هذه النقطة، فى معرض الحديث عن بليز پاسكال نفسه . لقد كانت أسرته تقية دائما ، ولا يلوح ان پاسكال الشاب – رغم انغماسه فى أعماله العلمية – قد امتُحن بالكفر قط . من المحقق ان اهتمامه كان موجها آنذاك إلى الأمور الدينية واللاهوتية ، ولكن اصطلاح «اهتداء» يمكن ان ينطبق فقط على شقيقته – الكبرى ، وكانت قد أصبحت تدعى مدام برييه ، وكذلك ، بوجه خاص، الصغرى التى أدركت ، عند ذلك الحين ، انها مهيأة للحياة الدينية . ولم يكن پاسكال نفسه ميالا، بحال من الأحوال ، إلى نبذ العالم . فبعد وفاة أبيه فى ١٦٥٠ رغبت (أخته) جاكلين، وهى شابة ذات قوة ملحوظة وجمال شخصية، فى ان تنذر نفسها لأن تكون أحدى الأخوات فى بور–رويال، ولفترة من الزمن ظلت رغبتها دون تحقيق ، بسبب معارضة أخيها . وكان اعتراضه قائما على الأساس الدنيوى الخالص والمتمثل فى انها كانت ترغب فى نقل إرثها إلى الطائفة ، على حين أنه فى حالة بقائها معه، كانت مواردهما المشتركة تتيح له ان يعيش على نحو أقرب إلى مستوى النفقات الذى يلائم أذواقه ، والحق انه لم يكن يحب فقط ان يختلط بخير الناس، وانما أيضا ان يحتفظ بعربة وجياد – وان ستة جياد هو الرقم الذى كان يُنسب، فى وقت من الأوقات ، إلى عربته . وعلى الرغم من انه لم يكن له من السلطة القانونية ما يمنع أخته من التخلص من ثروتها ، على نحو ما اختارت ، فإن جاكلين اللطيفة أحجمت عن أن تفعل ذلك ، دون موافقة أخيها عن رضاء . وما

لبثت الأم الكبرى ، الأم انجليك – وهى نفسها شخصية بارزة فى تاريخ هذه الحركة الدينية – ان أقنعت فى نهاية الأمر التلميذة الشابة بأن تدخل الطائفة، دون ان تجلب إرثها معها . غير ان جاكلين ظلت شديدة الحزن من جراء هذا الموقف، إلى أن لأن لها أخوها فى نهاية الأمر .

وعلى قدر ما نعلم ، فإن الحياة الدنيوية التى استمتع بها پاسكال فى هذه الفترة، لا يمكن ان توصف بـ «التحلل» ومن المحقق انها لا يمكن ان توصف بـ«الفساد» . فحتى المقامرة ربما تكون قد اجتذبته باعتبارها تُقدم ، أساسا ، فرصة لدراسة الإحتمالات الرياضية . ويلوح أنه قد عاش حياة كان أى رجل عقلانى مثقف طيب المركز ، وذى دخل مستقل ، خليقا بأن يعيشها ، ويعتبر نفسه نموذجا للنزاهة والفضيلة . فليس هناك حتى تجربة حب فى حياته ، وإن كان يقال إنه فكر فى الزواج . غير أن الجانسينية ، كما تُمثلها جماعة بور- رويال الدينية كانت – من الناحية الخلقية – حركة بيوريتانية داخل الكنيسة، وكانت معاييرها السلوكية على الأقل فى مثل صرامة معايير أى حركة بيوريتانية فى انجلترا أو أمريكا . وإن فترة المجتمع الراقى ، فى حياة پاسكال ، قد كانت – على أية حال – عظيمة الأهمية لتطوره . فقد وسّعت من معرفته بالبشر ، وأرهفت أذواقه، فغدا رجلا خبيرا بالدنيا ، ولم يفقد قط ما اكتسبه منها . وعندما وجه افكاره كلية إلى الدين ، كانت معرفته الدنيوية جزءا من تكوينه . أساسا لقيمة عمله .

إن اهتمام پاسكال بالمجتمع لم يصرفه عن البحث العلمى ، ولم تشغل هذه الفترة فراغا كبيرا فيما كانت حياة بالغة القصر والازدحام . فجزئيا نجد ان عدم رضاه الطبيعى عن مثل هذه الحياة ، وجزئيا ما ان عرف كل ما كان بمقدوره ان يعمله ، وجزئيا تأثير شقيقته الورعة جاكلين ، وجزئيا تزايد معاناته إذ راحت صحته تتدهور ، كلها قد وجهته، على نحو متزايد ، إلى الخروج من العالم ، وإلى أفكار الأبدية . وفى ١٦٥٤ حدث ما يدعى بـ «اهتدائه الثانى» وإن أمكن ان يدعى – ببساطة – اهتداءه .

وقد ترك مذكرة عن خبرته الصوفية ، ظل يحتفظ دائما بها ، ووجدت – بعد وفاته - معزولة فى المعطف الذى كان يرتديه . حدثت له هذه التجربة فى ٢٣ نوفمبر ١٦٥٤ وليس هناك ما يدعونا إلى الشك فى صدقها إلا إذا اخترنا ان ننكر كل خبرة صوفية . والآن ، فإن باسكال لم يكن متصوفا ، وأعماله لا ينبغى ان تُصنف مع الكتابات الصوفية . ولكن ما لا يمكن ان يدعى غير خبرة صوفية، يحدث لأناس كثيرين لا يغدون متصوفين . والعمل الذى اضطلع به ، بعد ذلك مباشرة، وعنوانه «رسائل إلى أحد سكان الريف»Lettres écrites a un provinincial ، انما هو آية من آيات الجـــدل الدينى ، يقف على الطرف المقابل للتصوف . ونحن نعلم جيدا أنه ، حين تلقى استنارته من الله، كان فى صحة بالغة السوء . ولكن من الشائع ان بعض صور المرض ملائمة تماما لا للاستنارة الدينية فحسب وانما أيضا للإنشاء الفنى والأدبى . فإن قطعة من الكتابة متأملة ، دون تقدم واضح ، لمدة شهر أو سنين ، قد تكتسب فجأة شكلا وكلمات . وفى هذه الحالة يمكن ان تنتج قطع طويلة لا تحتاج إلا إلى قليل من التنقيح ، أو لا شىء من ذلك . وليس لدى ما أزكى به تنمية الكتابة الأوتوماتيكية كنموذج للإنشاء الأدبى ، فإنى أشك فيما إذا كان يمكن لهذه اللحظات ان تنمى بواسطة الكتاب ، ولكن من المحقق ان من يحدث له هذا ، يخامره الشعور بأنه أداة أكثر مما هو صانع ، وليس هناك آية أدبية يمكن ان تنتج بأكملها بهذه الطريقة، غير اننا نجد أيضا أنه حتى أرفع صور الوحى الدينى لا يكفى للحياة الدينية ، ولابد حتى لأكثر المتصوفة تساميا من ان يعود إلى العالم وان يستخدم عقله لكى يطبق نتائج خبرته على الحياة اليومية . وتستطيع ان نسمى ذلك اتصالا بالإلهى ، أو تستطيع ان تسميه ، تبلورا مؤقتا للذهن . وإلى ان يتمكن العلم من ان يعلمنا كيف نعيد انتاج مثل هذه الظواهر إراديا، فإنه لا يستطيع ان يدعى انه شرحها ، ولا يمكن الحكم عليها إلا بثمارها .

ومنذ ذلك الحين حتى وفاته كان باسكال وثيق الصلة بجماعة بور – رويال التى كانت شقيقته جاكلين – المتوفاة قبله – قد انضمت إليها باعتبارها

راهبه religieuse وكانت الجماعة آنذاك ، تحارب من أجل وجودها ضد اليسوعيين. وما لبثت خمس أقضية ، حكمت عليها لجنة من الكرادلة وعلماء اللاهوت فى روما بأنها مهرطقة ، ان وُجدت فى عمل جانسينيوس ، وعانت جمعية بور – رويال ، ممثلة الجانسينية بين الجماعات ، ضربج لم تفق منها قط . وليس هذا هو المكان الملائم لاستعراض ذلك الجدل والصراع المريرين ، فإن خير وصف له – من وجهة نظر ناقد ذى عبقرية ، لم ينحز إلى أى من الجانبين ، ولم يكن بالجانسينى ولا باليسوعى ، لا بالمسيحى ، ولا بالكافر – هو ذلك الذى اشتمل عليه كتاب سانت – بوف ، «بور – رويال»، ذلك الكتاب العظيم . وفى هذا الكتاب نجد ان الأجزاء المخصصة لپاسكال نفسه من بين ألمع صفحات النقد التى كتبها سانت – بوف فى حياته . وحسبنا ان نلاحظ أن الشغل التالى لپاسكال ، بعد اهتدائه ، كان كتابة الرسائل الثمانى عشر، التى كانت – باعتبارها نثرا – ذات أهمية كبرى فى تأسيس الأسلوب الكلاسيكى الفرنسى، ولا يفوقها – باعتبارها جدلا – شىء ، ولا حتى ديموستين أوشيشرون أو سبويفت إن لها حدود كل المجادلات وألوان الدفاع : فهى تغرى وهى تغوى وهى ليست عادلة . ولكن مما يجافى العدل أيضا أن نؤكد ان پاسكال ، فى هذه الرسائل إلى أحد سكان الريف ، كان يهاجم جمعية يسوع فى حد ذاتها. لقد كان يهاجم – بالأحرى – مدرسة معينة فى الفتوى ، تخفف من متطلبات سر الاعتراف : مدرسة من المؤكد انها ازدهرت بين جمعية يسوع فى تلك الفترة، وكان الاسبانيان إسكوبار ومولينا أبرز ثقاتها . ولا ريب فى أنه أساء استخدام فن الإيراد ، كما يحتمل ان يفعل الكاتب الجدلى : بيد انه كانت أمامه إساءات استخدام ينتقص منها ، وقد قام بهذه المهمة على نحو كامل . إن الرسائل لا ينبغى ان تُدعى لاهوتا . فلم يكن اللاهوت الأكاديمى فرعا يحذقه پاسكال، وعندما كانت تدعو الضرورة ، كان آباء بور – رويال يهبون لنجدته . إن الرسائل من عمل واحد من أفتن العقول الرياضية فى أى عصر ، ورجل خبير بالدنيا لا يتوجه بالخطاب إلى اللاهوتيين وانما إلى الدنيا بعامة – إلى كل العلماء

الفرنسيين المثقفين ، وكثير من الأقل ثقافة ، وقد أحرزت رسائله نجاحا مدهشا مع هذا الجمهور .

وأثناء هذه الفترة ، لم يتخل پاسكال كلية قط عن اهتماماته العلمية . وعلى الرغم من انه فى كتاباته الدينية كان ينشىء ببطء جاهدا ، وينقح فى أكثر الأحيان ، يلوح أن ذهنه – فى المسائل الرياضية – كان يتحرك براعة ورشاقة طبيعية كاملة . كانت المكتشفات والمخترعات تقطر من مخه دون جهد ، ومن بين الاختراعات الثانوية فى هذه الفترة الأخيرة يقال أن أول خدمة للأوتوبيسات فى باريس ترجع بأصلها إلى قدرته على الابتكار . ولكن صحته الآخذة فى الضعف بسرعة ، والانغماس فى العمل العظيم الذى كان يفكر فيه ، لم يتركا له سوى قليل من الوقت والطاقة ، أثناء السنتين الأخيرتين من حياته .

إن خطة ما ندعوه الخواطر Pensées قد تشكلت حوالى عام ١٦٦٠. وكان يُراد للعمل المكتمل ان يكون دفاعا عن المسيحية مقاما بعناية ، واعتذارا صادقا، ونوعا من قواعد القبول ، يطرح الأسباب التى من شأنها ان تقنع العقل. وكما أشرت من قبل ، لم يكن پاسكال لاهوتيا ، وفى اللاهوت القطعى كان يلجأ إلى مستشاريه الروحيين . ولا هو قد كان ، بالتأكيد ، فيلسوفا منهجيا . لقد كان رجلا ذا عبقرية هائلة فى العلم ، وكان فى الوقت ذاته عالم نفس وأخلاقيا بطبيعته. ولما كان فنانا أدبيا عظيما ، فقد كان كتابه خليقا ان يكون أيضا سيرته الذاتية الروحية الخاصة . وأسلوبه ، إذ يبرأ من كل خصائص فردية تنتقص من قيمته ، كان شخصيا جدا رغم ذلك . وفى المحل الأول، كان رجلا قوى الأهواء: شهوته العقلية إلى الحقيقة يدعمها عدم رضاه المفعم بالعاطفة عن الحياة الإنسانية ، إلا إذا أمكن العثور على تفسير روحى لها .

ولابد لنا من ان ننظر إلى الخواطر Pensées على انها مجرد ملاحظات أولى لعمل تركه بعيدا عن الاكتمال . إن لدينا – بكلمات سانت بوف – برجا وضعت أحجاره على بعضها بعضا ، ولكنها لم تُدعم بالأسمنت ، وظل البناء ناقصا . وفى سنواته الباكرة ، كانت ذاكرته حافظة – علي نحو مدهش – لأي

شيء يرغب فى تذكره ، ولو لم يفسدها المرض والألم المتزايدان ، لكان من المحتمل ألا يضطر إلي ان يدون هذه الملاحظات أساسا . بيد أننا إذا تناولنا الكتاب كما بقي لنا ، فسنجد انه يشغل مكانا فريدا فى تاريخ الأدب الفرنسى وفى تاريخ التأمل الدينى .

ولكى نفهم المنهج الذى يستخدمه پاسكال ، ينبغى ان يكون القارىء على استعداد لمتابعة عملية عقل المؤمن الذكى . فالمفكر المسيحى – أعنى الرجل الذى يحاول ، عن وعى ، وبضمير حى ، ان يشرح لنفسه السلسلة التى تبلغ ذروتها فى الإيمان ، أكثر مما أعنى المدافع علنا عن الدين ، يتقدم من طريق النبذ والإلغاء . إنه يجد ان العالم كذا وكذا ، ونجد ان طابعه لا تفسره أى نظرية غير دينية : ومن بين الأديان يجد ان المسيحية . والمسيحية الكاثوليكية – هى التى تفسر ، على أكثر الأنحاء أرضاءً، العالم، والعالم المعنوى داخلنا بخاصة؛ وهكذا فإنه من طريق ما يدعوه نيومان عللا «قوية ومتلاقية» يجد نفسه وقد التزم ، على نحو لا ينحل ، بعقيدة التجسد القطعية . وهذا المنهج يبدو لغير المؤمن مخادعا وملتويا : لأن غير المؤمن – كقاعدة – لا يشغله شرحُ العالم لنفسه إلى هذا الحد الكبير ، ولا تحزنه فوضاه إلى هذا الحد الكبير ، ولا يعنيه عموما (إذا استخدمنا مصطلحات حديثه) «ان يحافظ على القيم» . وهو لا يعتبر انه إذا كانت حالات وجدانية معينة ، وألوان معينة من نمو الخلق ، وما يمكن ان يُدعى – بأعلى معانى الكلمة – «قداسة» هى باطنيا ، وبفحصها ، خيرة ، فإن التفسير المُرْضى للعالم لابد ان يكون تفسيرا يسمح بـ «حقيقة» هذه القيم . ولا هو يعتبر مثل هذا الاستدلال أمرا مقبولا : فهو خليق – إذا جاز لنا ان نقول ذلك – ان يشذب قيمه حسب القماش الموجود لديه ، لأن مثل هذه القيم ليست عظيمة القيمة فى نظره . إن غير المؤمن يبدأ من الطرف الآخر ، والأرجح احتمالا ان يبدأ بسؤال : هل حالة تولد عذرى بشرى أمر يمكن تصديقه؟ وهو يدعو هذا معنياً إلى قلب المسألة .

والآن فإن منهج پاسكال هو ، على وجه العموم ، المنهج الطبيعى والسليم

للمسيحى ، والمنهج المضاد هو ذلك الذى اصطنعه فولتير. وإنه ليجمل بنا أن نتذكر ان فولتير ، فى محاولته دحض پاسكال ، قد قدم - مرة واحدة ، وإلى الأبد - نموذج مثل هذا الدحض ، وان من تلوه من مناهضى دفاع پاسكال عن الإيمان المسيحى لم يسهموا بأكثر من تقريرات سيكولوجية ، من فضول القول . ذلك ان فولتير قد قدم ، خيرا من أى شخص آخر منذ ذلك الحين ، ما هو وجهة نظر غير المؤمنين . وعلينا فى نهاية المطاف ان نختار لأنفسنا بين وجهة نظر هذه، أو تلك .

قلت فيما سبق إن منهج پاسكال هو «على وجه العموم» منهج المدافع النموذجى عن المسيحية . وقد كان هذا التحفظ موجها إلى إيمان پاسكال بالمعجزات الذى يلعب فى بنائه دورا أكبر مما هو خليق أن يلعبه لدى الكاثوليكى الحديث، على الأقل . إنه لمن الإغراب فى الخيال ان نتقبل المسيحية لأننا نؤمن ، بادىء ذى بدء ، بأن معجزات الإنجيل ، حقيقية . ويلوح أنه مما ينافى التقوى ان نتقبلها لأننا ، فى المحل الأول ، نؤمن بأن معجزات أحدث عهدا كانت حقيقية. فنحن نتقبل المعجزات ، أو بعض المعجزات ، على أنها حقيقية، لأننا نؤمن بإنجيل يسوع المسيح : فنحن نؤسس إيماننا بالمعجزات على الإنجيل ، وليس إيماننا بالإنجيل على المعجزات . غير أنه ينبغى علينا ان نتذكر ان پاسكال تأثر تأثرا عميقا بمعجزة فى عصره، تُعرف بمعجزة الشوكة المقدسة : فإن شوكة يقال إنها بقيت من تاج سيدنا ، وُضعت على قرحة فإندملت بسرعة . ونحن نجد أن سانت -- بوف الذى شعر بأنه ، لكونه دارس طب ، يقف على أرض صلبة ، يناقش بالتفصيل التفسير الممكن لهذه المعجزة الظاهرة . من الحق ان المعجزة حدثت فى بور - رويال وانها جاءت فى الوقت المناسب لترفع من الحالة المعنوية الهابطة لهذه الطائفة ، فى محنها السياسية . ومن المحتمل ان يكون پاسكال أشد ميلا إلى الإيمان بمعجزة تحدث لأخته الحبيبة . وعلى أية حال، فإنها - فيما يحتمل - قد أدت به إلى ان يفسح للمعجزات ، فى دراسته للايمان ، مكانا، ليس بالضبط هو الذى يجمل بنا ان نفسحه لها .

والآن فإن الخصم الأكبر الذى وجه إليه پاسكال نفسه ، منذ محادثاته الأولى مع مسيو دى ساسى فى بور - رويال ، كان مونتينى . من المحقق ان المرد لا يستطيع ان يقضى على باسكال ، غير انه من بين جميع الكتاب ، كان مونتينى واحدا من أقلهم قابلية لأن يُقضَى عليه . فذلك أشبه بأن نبدد ضبابة برمى قنابل يدوية عليها . ذلك أن مونتنيى ضبابة ، غاز ، سائل ، عنصر خداّع. إنه لا يحاجى وانما يلمح ويسخر ويؤثر ، أو إذا هو حاجى ، فينبغى ان تكون على استعداد لأن له خطة أخرى يدبرها لك غير إقناعك بحجته . وليس من الكثير ان نقول إن مونتينى كان هو أهم كاتب تنبغى معرفته ، إذا أردنا أن نفهم مجرى الفكر الفرنسى أثناء الثلاثمائة سنة الماضية . ومن كل النواحى كان تأثير مونتينى منفرا لرجال بور - رويال . وقد درسه پاسكال بنية هدمه . ومع ذلك فإننا نجد فى «الخواطر» Pensées ، عند نهاية حياته، قطعة فى أثر قطعة - وكلما كانت هينة الشأن ، كانت دلالة ذلك أعظم - «منتزعة» من مونتينى ، حتى ولو كانت مجازا أو كلمة . وأوجه الشبه [1] انما تتمثل على الاغلب فى مقالة مونتينى الطويلة المسماة «دفاع ريمون سيبون» Aplogie de Raymond Sébond - وهى قطعة مدهشة من الكتابة يُحتمل ان يكون شكسبير قد احتذاها أيضا فى مسرحية «هملت» . ومن المحقق انه بمجىء الوقت الذى يكون المرء فيه قد عرف مونتينى بما فيه الكفاية لأن يجعله يهاجمه ، فإنه يكون قد تشبع تماما بعدواة .

وإنه ليكون على أية حال من الظلم البليغ لپاسكال ولمونتينى وللأدب الفرنسى بالتأكيد ان نترك الموضوع عند هذا الحد . إنه ليس تقليلا من قدر

---

(١) قارن استخدام تشبيه الـ Couvreur . ولمقارنة قطع متوازية فإن طبعه هنرى ماسى لكتاب «الخواطر» Pensées (A la cité des livres) تفضل طبعة جاك شيفالييه التي تقع في جزئين جابالدا) . ويلوح من المحتمل ان يكون مسيو شيفاليه فى هذه الطبعة الأخيرة وكذلك فى دراسته التأريخية (پاسكال لجاك شيفالييه، الترجمة الانجليزية من نشر شيد آند ورد) مسرفا فى الحماس بعض الشىء لاثبات استقامة پاسكال الكاملة في الرأى .

پاسكال ، وانما هو مجرد تعظيم لمونتينى . ولو أن مونتينى كان شاكا عاديا من الحجم الطبيعى ، رجلا صغيرا كأناتول فرانس ، أو حتى رجلا أعظم كرينال أو حتى أعظم الشكاك قاطبة : فولتير ، لما شرف هذا «التأثير» پاسكال . غير انه لو لم يكن مونتينى أكبر قامة من فولتير ، لما أمكنه ان يؤثر فى پاسكال أساسا. إن صورة مونتينى التى تقدم نفسها لأعيننا ، فى مبدأ الأمر ، صورة «الشخصية» المتوحدة الأصيلة والمستقلة ، وقد انغمست فى التسلى بتحليل ذاتها، انما هى صورة خداعة . فبيرونية مونتينى ليست بيرونية محدودة كبيرونية فولتير أو رينان أو فرانس . إنه يوجد - إذ جار لنا ان نقول ذلك - على مستوى عدة دوائر متحدة المركز ، أوضحها هى أصغرها وأعمقها : شكية شخصية عابثة، يمكن بسهولة محاكاتها محاكاة ساخرة ، إن لم يمكن محاكاتها . غير أن ما يجعل من مونتينى شخصية بالغة العظمة انه نجح - ولا يعلم غير الله كيف ، لأن من المحتمل جدا ألا يكون مونتينى مدركا انه قد فعل ذلك ، إذ ليس هذا بنوع الشىء الذى يستطيع البشر يلاحظوه على أنفسهم ، وانما هو أساسا شىء أكبر من وعى الفرد - نجح فى ان يعبر عن شكية كل كائن انسانى. ذلك ان كل كائن انسانى ، يفكر ويعيش بالفكر ، لابد ان تكون له شكيته الخاصة : تلك التى تتوقف عند حدود السؤال ، أو تلك التى تنتهى بالإنكار ، أو تلك التى تفضى إلى الايمان وتندمج على نحو ما فى الإيمان الذى يجاوزها . وپاسكال - باعتباره نموذجا لذلك النوع من المؤمن الدينى ، الذى يتسم بدرجة عالية من حرارة العاطفة والحماس ، ولكنه ليس حار العاطفة إلا من خلال عقل قوى منظم - انما هو فى الأجزاء الأولى من دفاعه عن المسيحية ، الذى لم يتمه ، يواجه دون نكوص شيطان الشك الذى لا ينفصل عن روح الإيمان .

وعلى ذلك فان ثمة شيئا مختلفا تماما عن ان يكون تأثيراً مثبتا لضعف پاسكال . فإن ثمة قرابة حقيقية بين شكه وشك مونتينى . ومن خلال قرابته المشتركة مع مونتينى ، يتصل پاسكال بذلك الخط النبيل والمبرز من الأخلاقيين

الفرنسيين ، من لاروشفوكو فنزويلا ، وهذا الموروث الفرنسى ، بالأمانة التى يواجه بها معطيات données العالم الفعلى ، ذو نوعية فريدة فى الأدب الأوربي ، ونجد في القرن السابع عشر ان هوبز عديم الصقل بالقياس إليه .

أن پاسكال رجل دنيا بين متقشفين ومتقشف بين رجال دنيا . وهو يملك معرفة الدنيوية وعاطفة التقشف ، وفيه يندمج هذان الأمران في كل فردى . إن غالبية البشر بليدة الذهن غير محبة للاستطلاع منغمسة في الأباطيل وفاترة الوجدان ، وعلى ذلك فإنها عاجزة عن الشك الكبير أو عن الإيمان الكبير . وعندما يدعو الرجل العادى نفسه شاكاً أو غير مؤمن ، فإن هذا يكون عادجة وضعا بسيطا يُخفي عزوفا عن ان يفكر فى أي شىء حتى يصل إلي نتيجة . وتحليل پاسكال المنقشع عنه الوهم للغل الإنسانى أحيانا ما يفسر على أنه يعنى ان باسكال كان حقيقة وأخيرا غير مؤمن عاجزا - فى قنوطه - عن تحمل الواقع ومستمتعا بالرضاء البطولى النابع من عبادة الرجل الحر للاشىء . إن قنوطه وانقشاع أوهامه ليسا ، على أية حال ، تمثيلا لضعف شخصي ، وانما هما موضوعيان تماما ، لأنهما لحظات أساسية فى تقدم الروح المفكرة، وهما - لدى طراز پاسكال - يوازيان الجدب والليلة المظلمة التي هى مرحلة ضرورية فى تقدم المتصوف المسيحى . وان قنوطا مشابها ، حينما تصل إليه شخصية مريضة أو روح غير نقية ، قد ينتج أشد العواقب وبالا ، وإن اتخذ أشد المظاهر تفوقا ، ، وهكذا نحصل علي «رحلات جاليفر» . ولكننا لا نجد عند پاسكال مثل هذا التحريف . فقنوطه فى حد ذاته مروع أكثر من قنوط سويفت ، لأن قلوبنا تدلنا على انه يراسل - بالضبط - الوقائع ولا يمكن تنحيته علي انه مرض عقلى، وانما هو أيضا قنوط بمثابة مدخل ضرورى إلى طرب الإيمان وعنصر فيه .

ولست أود ن أدخل ، أكثر من اللازم ، فى مسألة خروج الجانسينية عن

السنة، فليس من شأن هذه المقالة ان تقرر ما إذا كانت الأقضية الخمس، التي أدينت فى روما ، قد اعتنقها حقيقة جانسينون فى كتابه (أوغسطين) ، أو ما إذا كان يجمل بنا ان نأسف أو نوافق علي ما تلى ذلك من اضمحلال لبور - رويال (من المحقق انه كان مصحوبا ببعض الاضطهاد) . فإنه لمن المستحيل ان تناقش الموضوع دون ان يُنج بك ، كمجادل ، مع روما أو ضدها . غير أنه فى رجل من طراز پاسكال - غير انه فى رجل من طراز باسكال - وهذا الطراز موجود دائما - ثمة ، فيما أظن ، عنصر مما يمكن ان يسمى جانسينيه المزاج ، دون ان يكون مطابقا لجانسينيه جانسينوس وغيره من دكاترة الكنيسة الأتقياء المخلصين، وإن لم يكونوا عظيمى الحظ من الموهبة [1] . وعلى ذلك فمن الضرورى ان نقرر ، باختصار ، عقيدة جانسينوس الخطرة ، دون ان نتقدم ، أبعد من اللازم، فى دقائق اللاهوت . من المعترف به فى اللاهوت المسيحى - ومن المحقق انه من المعترف به ، على مستوى أدنى ، لدى جميع الناس فى شئون الحياة اليومية - ان الإرادة الحرة للمجهود الطبيعى وقدرة الفرد وكذلك الفضل الإلهى فوق الطبيعى - وهى هبة لا نعرف ، على وجه الدقة ، كيف تُمنح - كلاهما مطلوب، متعاونين ، من أجل الخلاص . وعلى الرغم من ان عدة لاهوتين قد وجهوا أذهانهم إلى هذه المشكلة ، فإنها تنتهى بلغز نستطيع ان ندركه ولكننا لا نستطيع ان نحله ، فى نهاية المطاف . ومن الواضح ، على الأقل ، كما هو الشأن فى أى عقيدة أخرى ، ان أى سرف أو انحراف طفيفين إلى هذا الجانب أو ذاك ، من شأنهما ان يعجلا بقيام هرطقة . لقد أكد البيلاجيون - الذين دحضهم القديس أوغسطين - فاعلية الجهد الانسانى وقللوا من أهمية الفضل الإلهى فوق الطبيعى . وقد أكد الكالڤينيون انحطاط الإنسان ، من خلال الخطيئة الأصلية ، واعتبروا الانسانية من الفساد إلى الحد الذى لا تجدي الإرادة معه نفعا، ومن ثم سقطوا فى عقيدة الجبر المسبق . وقد اعتمد الجانسينيون ، فيما

---

(١) كان الرجل العظيم ، في بور- رويال هو ، بطبيعة الحال ، سان - سيران ، ولكن أى شخص يهمه الموضوع خليق ، يقينا ، ان يرجع ، أولا ، الى كتاب سانت - بوف المذكور

يقول القديس أوغسطين، علي عقيدة الفضل الإلهى . وقُدم كتاب «أوغسطين» لجانسينيوس ، على انه عرض رجيح لآراء أوغسطين .

إن الهرطقات لا يتقادم العهد عليها قط ، لأنها تتخذ دائما أشكالا جديدة. فعلى سبيل المثال نجد ان الإصرار علي ان الأعمال الصالحة و «الخدمة» ، وهو ما تعظ به عدة جهات ، أو الإيمان البسيط بأن أى شخص يعيش حياة صالحة ومقيدة ، لا حاجة به إلى ان يستشعر قلقا «مَرَضِيا» على الخلاص ، انما هو شكل من البيلاجيانية . ومن ناحية أخرى ، يسمع المرء أحيانا رأيا مؤداه انه ليس من المهم حقيقة ان تنهار كل الحرمات الدينية التقليدية للسلوك الخلقى، حيث ان من ولدوا ونشأوا على ان يكونوا صالحين ، سيفضلون دائما ان يتصرفوا تصرفا صالحا وان من ليسوا كذلك ، سيتصرفون تصرفا غير صالح، على أية حال . ومن المؤكد ان هذا شكل من أشكال الجبر المسبق – لأن مغامرة ان يولد المرء صالحا أو غير صالح فى مثل لا يقين هبة الفضل الإلهى .

ومن المحتمل ان يكون پاسكال قد جذبته ثمار الجانسينية في حياة بور-رويال قدر ما جذبته العقيدة ذاتها ... فهذه الجماعة التقية المتقشفة الكاملة ، التى كانت تناضل نضالا بطوليا فى قلب مسيحية تتسم بالاسترخاء واليسر ، قد كُونت لجذب طبيعة فى مثل تركيز وحرارة وكمال طبيعة پاسكال . غير ان إصرار الجانسينية على وضع الإنسان المنحط ، عديم الحول ، انما هو أيضا شيء ينبغى ان نشعر نحوه بالعرفان ، لأننا ندين له بذلك التحليل الفخيم لدوافع الإنسان ومشاغله ، الذى قدر له ان يكون الجزء الأول من كتابه . وفضلا عن الجانسينية، التى هى من عمل أسقف ليس شديد البروز ، كتب رسالة لاتينية لا يقرؤها الآن أحد ، ثمة أيضا – إذا جازلنا ان نقول ذلك – جانسينية لسيرة الفرد . من الطبيعى ان تقع لحظة من الجانسينية ، وعلى النحو الصحيح ، فى (حياة) الفرد، وخاصة فى حياة رجل ذى قدرات ذهنية عظيمة حادة ، لا يستطيع ان يمنع نفسه من التغلغل فى الكائنات الإنسانية وملاحظة أباطيل أفكارهم ومشاغلهم، وعدم أمانتهم وخداعهم لذواتهم ، وعدم اخلاص انفعالاتهم ، وجبنهم

، وصغار مطامحهم الحقيقية [1] . ومن الناحية الفعلية ، فإننا إذا وضعنا فى اعتبارنا ان (إدراك) هذه الصفات يحتاج إلى نضج أكبر كثيرا مما تحتاج إلهي أى عظمة رياضية أو علمية ، فسندرك مدي السهولة التى كان يمكن بها لتأمله فى شقاء الانسان بدون الله ان يشجع فيه خطيئة الكبرياء الروحى ، ولذة الفكر concupiscence de L'esprit : وما أحكم قبضته على الإقناع .

وعلى الرغم من ان باسكال يجلب إلى عمله نفس القوى التي يمارسها فى العلم ، فإنه لا يقدم نفسه باعتباره عالما . إنه لا يلوح كمن يقول للقارىء : إنى واحد من أبرز علماء عصرى ، وانى لأفهم كثيرا من المسائل التى ستظل دائما الغازا بالنسبة إليكم ، ومن خلال العلم توصلت إلى الإيمان . وعلى ذلك فإنه يجمل بكم – أنتم الدين لم تتثقفوا فى العلم – ان تؤمنوا ، ما دمت أومن . إنه على وعى كامل بالاختلاف بين الموضوعين ، وان تفرقته الشهيرة بين «العقل الرياضى» esprit de géométrie و «البصيرة» esprite de finesse لجديرة بأن يتأمل فيها :

En l'un, les principes sont palpables, mais éloignés de l'usage communi de sorte qu'on a peine a tourner la tête de ce côté la, manque d'habitude : mais pour peu qu'on l'y tourné, on voit les principes a pleine; et il faudrait avoir tout a fait l'esprit faux pour mal raisonner sur des principes si gros qu'il est presque impossible qu'ils échappent.

---

(1) Cette négligence en une affaire ou il s'agit d'eux-mêmes, de leur éternité, de leur tout, m'irrite plus qu'eile ne m'attendrit elle m' étonne et m'épouvante, c'est un monstre pour moi. Je ne dis pas ceci par le zele pieux d'une dévotion spirituelle. J'entends au contraire qu'on doit avoir ce sentiment par un principe d'intérêt humain et par un intérêt d'amour-propre: il ne faint pour cela que voir ce que voient les personnes les mons éclairées Pensées: ed-Massis, p. 29.

Mais dans l'esprite de finesse, les principes sont dans l'usage commun et devant les yeux de tout le mode. On n'a que faire de tourner la tête, ni de se faire violence; il n'est question que d'avoir bonne vue, mais il faut l'avoir bonne; car les principes sont si déliés et en si grand nombre, qu'il est presque impossible qu'il n'en échappe. Or, l'omission d'un principe mene a l;'erreur; ainsi, il faut avoir la vue bien nette pour tous les principes, et ensuite l'esprit juste pour ne pas raisonner faussement sur de principes connus.

«أما الأول فمبادئه واضحة ولكنها دون تداول العامة، ومن لم يمارسها يشق عليه الانتباه إليها . وقليل من الانتباه كفيل برؤية المبادىء جلية ولابد ان يكون العقل سقيما للغاية حتى يسىء الاستدلال بمبادئ علي هذا القدر من الوضوح يكاد يكون من المحال معه إغفالها .

أما البصيرة فمبادئها شائعة الاستعمال ، شاخصة لأعين الجميع، فلا حاجة إلى الالتفات إليها وإلى إجهاد النفس . وكل ما يقتضيه الأمر أن يكون النظر سليما ولابد ان يكون سليما إذ ان مبادىء البصيرة من التخلخل والكثرة يكاد يكون معهما من المحال عدم إغفال بعضها . غير ان إغفال مبدأ واحد يوقع فى الخطأ . فلابد إذن من أن يكون النظر جليا كل الجلاء لرؤية جميع هذه المبادىء ، ثم أن يكون العقل سليما كى لا يخطىء فى الاستدلال بمبادىء معلومة»*.

إن هذا الاجتماع الدقيق للعالم والسرى honnête homme والطبيعة الدينية مع التعطش الحار إلى الله هو ما يجعل پاسكال فريدا . فهو ينجح حيث

---

* النص من ترجمة الدكتور نجيب بلدى ، وقد أخذناه من كتابه عن پاسكال (المترجم) .

يفشل ديكارت [1] . لأن عنصر العقل الرياضى esprit de géométrie مسرف فى ديكارت . وفى عبارات قلائل عن ديكارت ، فى هذا الكتاب ، وضع پاسكال إصبعه على مكمن الضعف

Je ne pus pardonner a Descartes: il aurait bien voulu, dans toute sa philosophie, se pouvoir passer de Dieu; mais il n'a pu s'empêcher de lui faire donner une chiquenaude, pour mettre le monde en mouvement; aprés cela, il n'a plus que faire de Dieu.

«لا أستطيع ان أغفر لديكارت . إنه – فى فلسفته بأكملها – يود لو استغنى عن الله ، ولكنه لم يستطع الحيلولة بين نفسه والسماح له بأن يشير باصبعه، كى يجعل العالم فى حالة حركة ، وبعد ذلك لم تعد به حاجة إلى الله» .

أن من يقرأ هذا الكتاب سيلاحظ علي الفور طبيعة الشذرية ، ولكنه لن يدرك إلا بعد بعض الدراسة أن الشذرية تكمن في التعبير أكثر مما تكمن فى الفكر فـ «الخواطر» لا يمكن فصل بعضها عن بعض وإيرادها كما لو كان كل منها كاملا فى حد ذاته . «إن للقلب أسبابه التى لا يعرف العقل عنها شيئا Le coeur a ses raisons que la raison ne connaît point.

كم مرة سمع المرء هذه الجملة تورد ، وتورد – غالبا – للهدف الخاطى [2] ! ذلك أن هذا ليس ، بحال من الأحوال ، إعلاء لـ «القلب» على «العقل» أو دفاعا عن اللاعقل . إن القلب ، فى مصطلح پاسكال ، عاقل فى حد ذاته عقلا حقا ، إذا كان قلبا حقا . وعنده ، فى الأمور اللاهوتية التى كانت تلوح له أكبر كثيرا وأصعب كثيرا وأهم من الشئون العلمية ، ان الشخصية بأكملها تدخل فيه .

---

(١) للوقوف على نقد لامع لأغلاط ديكارت ، من وجهة نظر لاهوتية ، نشير على القارىء بالرجوع إلي كتاب «ثلاثة مصلحين» لجاك ماريتان (وقد نشرت ترجمته دار شيد آند وارد) .

(٢) والذين أوردوا C'est la ma place au soleil قد نسوا ، فى أكثر الأحيان ، ان يضيفوا Voila le commencement et l'image de l'usurpation de toute la teree.

ونحن لا نستطيع ان نفهم تماما أيا من الأجزاء ، بكل شذريتها ، دون بعض الفهم للكل . فمن الأمور البالغة الأهمية على سبيل المثال تحليله للمراتب الثلاث : مرتبة الطبيعة ، ومرتبة الذهن، ومرتبة الإحسان . إن هذه المراتب الثلاث غير متصلة ، فأعلاها ليس متضمنا فى أدناها ، كما كانت خليقة بأن تكون فى مذهب نشوئى [1]. وفى هذه التفرقة يقدم باسكال الكثير مما يُحسن العالم الحديث صنعا بأن يفكر فيه . ومن المحقق انه بسبب جمعه هذا الفريد وموازنته بين هذه الصفات ، لا أعرف كاتبا دينيا أنسب منه لعصرنا . إن المتصوفين العظماء ، كالقديس يوحنا الصليب ، يصلحون أساسا للقراء ذوى التصميم الخاص فى الغرض ، والكتاب الدينيون، كالقديس فرانسوا دى سال ، يصلحون أساسا لمن يشعرون ، عن وعى ، بأنهم راغبون فى حب الله . واللاهوتيون العظماء يصلحون لمن هم مهتمون باللاهوت . وأنا لا أستطيع ان أفكر فى أى كاتب مسيحى ، ولا حتى نيومان ، أجدر من باسكال ، بأن يُزكّي لأولئك الذين يشكون ولكن لهم العقل الذى يدرك والحساسية التى تشعر بفوضى وعقم ولا معنى ولغز الحياة والمعاناة ، والذين لا يستطيعون ان يجدوا سلاما إلا فى رضاء الكائن بأكمله .

---

(١) ثمة نظرية حديثة مهمة عن عدم الاتصال مستوحاة جزئيا من باسكال قد رسمت خطوطها فى الشذرات تحت اسم «خواطر» لـ : ت . أ . هيوم (كيجان بول).